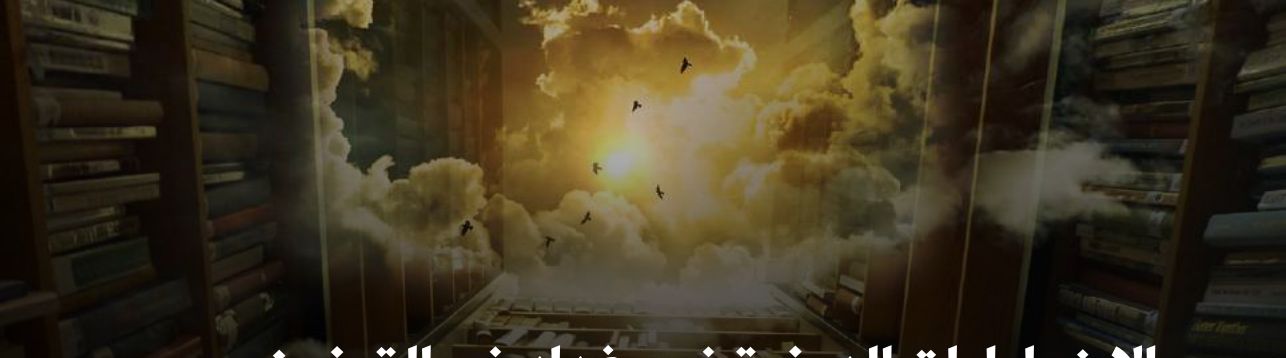

الاضطرابات الدينية في بغداد في القرنين الرابع والخامس الهجريين [1]

تأليف: أُنري لاؤوست [*]

تأليف: أسامة شفيع السيد [**]

بين يدي الترجمة:

لست أشك في أن سؤالًا سيعرض لقارئ هذا المقال بعد الفراغ منه، وهو: ما الداعي إلى نقله إلى العربية؟ والحق أن لهذا السؤال من الوجاهة ما جعله يمر بخاطري غيرَ مرةٍ في إبان الترجمة، حتى كدتُّ أمسك عن إتمامها، منصرفًا عنها إلى غيرها مما هو أجدى وأنفع للقارئ العربي.والسبب في مشروعية هذا السؤال أن أُنْري لاؤوست **(Henri Laoust)**[*] لم يزد -في أكثر مقاله- على أن (نقل) إلى الفرنسية ما جاء في كتب التاريخ العربية -**كالمنتظَم، والبداية والنهاية، والكامل** وغيرها- من بعض الحوادث

---

(1) Henri Laoust ; Les agitations religieuses à Baghdâd aux IVe et Ve siècle de l'Hégire. Islamic civilisation 950-1150: a Colloquium published under the auspices of the Near Eastern history group Oxford, the Near East center. University of Pennsylvania/ Editor D. S. Richards. (pp.169- 185)

(*) - أُنْري لاؤوست (Henri Laoust): مستشرق فرنسي تخصص في ابن تيمية والحنابلة بوجه عام. ولد في (فبراير سنة ١٩٠٥م) في قرية فرين على نهر الأسكو، وتوفي في روني، في (نوفمبر سنة ١٩٨٣م). حصل في سنة (١٩٢٨م) على الليسانس في اللغة العربية، والليسانس في الفلسفة. ثم أمضى عامًا في دمشق ملحقًا بالمعهد الفرنسي بها. وبعد حصوله على شهادة الأجريجاسيون في اللغة العربية عين في (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية؛ بحي المنيرة في القاهرة) من سنة (١٩٣١م) إلى سنة (١٩٣٥م) حيث توفر على دراسة ابن تيمية، وحصل على الدكتوراه في آرائه السياسية والاجتماعية. ثم عين مديرًا للمعهد الفرنسي في دمشق قريبًا من (٢٦ عامًا)، ثم خلَف ماسينيون في منصبه أستاذًا لعلم الاجتماع الإسلامي بالكوليج دي فرانس بعد تقاعده سنة (١٩٥٣م)، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن تقاعد سنة (١٩٧٥م)، من أعماله: (الانشقاقات في الإسلام)، و(السياسة عند الغزالي). [عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين، (ط. ٣)، (تموز/ يوليو ١٩٩٣)، (ص/ ٥١٠، ١١)].

(**) كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر. البريد الإلكتروني:

a.marouf21@gmail.com

التي وقعت في بغداد في القرنين الرابع والخامس الهجريين مما له اتصال بالاضطرابات الدينية، دون أن يورد في أثناء ذلك -غالبًا- شيئًا من التحليل أو الاستنباط أو ما أشبه ذلك مما هو من قبيله، اللهم إلا بعضَ الدروس التي أجملها إجمالًا في الخاتمة، وأخطرُها وأجلُّها الإشارة إلى الدور المحتمل للشيعة الإمامية في سقوط بغداد، وفي ذهاب دولة الخلافة السُّنية، لولا أن أقوى حججه على إثبات هذا الدور لم تكن مستمدة مما زخر به البحث من أحداث، وإنما كانت تستند إلى زيادة النشاط العلمي والمذهبي لهم بعد سقوط بغداد؛ أي في حقبة أخرى لاحقة على هذه التي توفر على درسها، وإن كان ذكر الاضطرابات بين السنة والشيعة في عاصمة الخلافة قبل سقوطها مما يُقوِّي في النفس -مع أمارات أخرى- نسبة هذا الدور إلى الإمامية.

مهما يكن من شيء، فقد قلت في نفسي: إن يكن هذا البحث نافعًا لمن يريد أن يقف على طرَف من تاريخ المسلمين ممن يجهل العربية، فإن إعادته إلى العربية مرة أخرى توشك أن تكون ضربًا من العبث الذي لا طائل من ورائه، لولا أن خَطَرَت لي فكرةٌ أوحت بها المقارنة بين (حكاية) لاؤوست للأحداث، وما وقفت عليه في المصادر العربية. وخلاصة هذه الفكرة ألا يرى القارئ العربي في هذه الترجمة مجرد (إعادة) لنصوص عربية تُرجمت إلى الفرنسية، فيقدِّرَ أن الاشتغال بها أدنى إلى اللعب منه إلى الجِدِّ، ولكن يتخذها (مسبارًا) يقيس به صحة فهم طائفة من المستشرقين لمصادرنا القديمة، ودقتهم أو أمانتهم (العلمية) في النقل عنها، وفي تصوير ما فيها؛ وذلك أني لاحظت أن لاؤوست زاد في مواضع ونَقَصَ، وبدَّل في مواضع وغيَّر، واختار وانتقى فأخذ وترك، ومزج الرواية التاريخية في مواضع بالاستنباط الشخصي فأوهم أنه جزء منها، وأساء الفهم في بعض المواضع كذلك، كلُّ هذا مع أنه جرى ههنا على وفق الطابع السائد في جميع إنتاجه، وهو (العرض الواسع التاريخي، دون التعمق النظري والأصالة في الفهم والتفسير). [بدوي، «موسوعة المستشرقين»، (ص/ ٥١١)].

وسوف يرى القارئ الكريم في حواشينا على الترجمة من الأمثلة على ما أسلفناه ما فيه مقنع، فأغنى عن إيراده في هذه التقدمة الوجيزة، والله الموفق لا رب غيره.

المترجم.

نص الترجمة[١]

مـن الممكـن - في تحقيـب تاريـخ الإسـلام العـام - اعتـدادُ السـنوات التـي مـرت بـين اعتـلاء الخليفـة القـادر سُـدَّةَ الحكم في سـنة (٣٨١هـ = ٩٩١م)، وموت السـلطان ملكشـاه في سـنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٢م)، (مرحلـةً انتقاليـةً) في الديـن والسياسـة جميعًـا. فالاضطرابـات المتزايـدة التـي هـزت أركان المدينـة العراقيـة الكبـيرة، مقـرِّ الخلافـة، كانـت قـد بلغـت مـن الكـثرة حـدًّا لا يَسـوغ معـه أن تُعـدَّ حـوادث محليـة يسـيرة، فقـد اسـتعرت نارها واسـتحالت مواجهاتٍ شـعبية عنيفـة، ومشـاجراتٍ بـين المتكلمـين والفقهاء. والحـق أن هـذه الاضطرابـات تَقِـف مَـن أَخَـذَ نفسـه بمتابعـة سـيرها، واسـتخلاص معناهـا ومضمونهـا عـلى فهـمٍ أفضـلَ لمـا كانـت عليـه العلاقـاتُ بـين المذهبـين السـني والشـيعي في واقـع الحـال، وكذلـك لبعـض المشـكلات الناجمـة عـن تشـكيل المذهـب السـني، أو عـن طبيعـة السـلطة ذاتهـا.

فالاضطرابـات المتزايدة التي هزت أركان المدينـة العراقيـة الكبـيرة، مقـرِّ الخلافة، كانـت قـد بلغـت مـن الكـثرة حـدًّا لا يَسـوغ معـه أن تُعـدَّ حـوادث محليـة يسـيرة، فقد اسـتعرت نارها واسـتحالت مواجهـاتٍ شـعبية عنيفـة، ومشـاجراتٍ بـين المتكلمـين والفقهاء.

ومنـذ أن وصـل البويهيـون إلى بغداد في سـنة (٣٣٤هـ = ٩٤٥م)، والصدامُ محتدمٌ بين السنة والشـيعة، كـما أن الوَصايـة التـي كان الأمـراء البويهيـون يمارسـونها عـلى الخليفـة قد بدت -في العمـوم- مضيَّقًـا عليهـا، تَتَكَنَّفُهـا الرِّيَـب، ولمـا ولي القـادرُ الخلافـةَ (٣٨١-٤٢٢/٩٩١-١٠٣١)، تغـير وجـه الأمـر، وكانـت هنـاك خطـة للدفـاع عـن السـنة، واسـتعادة سـلطة الخليفـة، لا بطريـق القـوة الماديـة، فقـد كان يفتقـر إليهـا، ولكـن بتنفيـذ عمـل دبلومـاسي حصيـف، وببـذل جهود واسـعة في الدعـوة[٢].

وفي سـنة (٣٨٣/٩٩٤)، لمـا أنشـئت دار العلـم لسابور بن أَرْدَشِير -التي تُعد أحيانًا أول مدرسة بنيت في الإسـلام، وكانت للدفـاع عن المذهب الشـيعي- رد الخليفـة عـلى ذلـك بالخطبـة

(١) هـذه قائمـة بالرمـوز المسـتعملة في هـذه المقالـة: ب: ابـن كثـير، «**البدايـة والنهايـة**»، (١٤مج).)القاهـرة، (١٩٣٢- ١٩٣٩). ذيـل: ابـن رجـب، «**كتـاب الذيـل عـلى طبقـات الحنابلـة**»، (٢ مـج).) القاهـرة، (١٣٧٢ = ١٩٥٣). دول: الذهبـي، كتـاب دول الإسـلام، حيدرآبـاد، (٢ مـج). (١٣٦٤ = ١٩٤٥). ابـن عقيل: جورج مقدسي، Ibn ʻAqil et la résurgence de l'islam traditionaliste au (XIe siècle)Ve siècle de l'Hégire) دمشـق ١٩٦٣م). ابـن بطـة: أنـري لاؤوسـت، **(la profession de foi d'ibn Batta** دمشـق، ١٩٥٨م). ك: ابـن الأثير، كتـاب الكامل في التاريخ، بيروت، (١٤مـج). (١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م). م: ابـن الجـوزي، كتـاب المنتظَم، حيدرآبـاد، (٨ مـج). (د.ت.). الماوردي: أنـري لاؤوسـت، **La pensée et l'action politiques d'al-mâwardî** (٣٦٤-٤٥٠/ ٩٧٤-١٠٥٨). REI: سـنة (١٩٦٨م)، (ص/ ١١- ٩٢). الانشـقاقات: أنري لاؤوست، **Les Schismes dans l'Islam**، (باريس، ١٩٦٥).

(٢) يوجـد في: ابـن بطـة (رقـم/ ٢١٣) تأريـخ مسلسـل موجـز لهـذه الاضطرابـات منـذ سـنة (٣٣٤=٩٤٥) إلى أن تـولى القـادر الحكـم.

في افتتاح مسجد جديد في حي الحربية[١].
وفي سنة (٩٩٨/٣٨٩)، وقعت اضطرابات عامة خطيرة حيث كان شيعة بغداد يحتفلون في حماسة شديدة بمناسبتين جليلتين: عاشوراء في١٠ من المحرم، وغدير خُم في ١٨ من ذي الحجة، فقابلهم أهل السنة بمناسبتين أخريين: زيارة قبر مصعب بن الزبير في ١٨ من المحرم، وذكرى يوم الغار في ٢٦ من ذي الحجة؛ احتفالًا في الأولى بانتصار مصعب على ثورة المختار، وفي الأخرى بحادث من حوادث السيرة، حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- منفردًا مع أبي بكر وهو يطلب النجاة من خصومه[٢].
وقد أفضت الاضطرابات التي جر إليها الاحتفال بهذه المناسبات إلى وقوع مواجهات مسلحة -سنة (١٠٠٢/٣٩٢)- في طرق العاصمة بين العَيَّارين من كلا الحزبين: حزب علي وحزب العباس[٣]، فتعين في العام التالي منعُ الاحتفال الشعبي بهذه المناسابات[٤].

وفي سنة (١٠٠٣/٣٩٤)، وقع حادث شديد الخطورة، كشف عن اضطراب سياسي عميق، وعن اختلال في توازن القوى بين الخلافة والإمارة. فقد عهد الأمير البويهي، بهاء الدولة -الذي اشتهر بنزوعه إلى التشيع- إلى أبي أحمد الموساوي (ت ٤٠٠هـ)- أحد أحفاد موسى الكاظم، وأبرز شخصية في عالم الإمامية - بتولي وظائف أربع: قاضي القضاة، وأمير الحج، ورئيس ديوان المظالم، ونقيب الطالبيين، بيد أن الخليفة قَبِلَ إسناد الثلاث الوظائف الأخيرة إليه، دون وظيفة قاضي القضاة[٥].

وفي سنة (١٠٠٧/٣٩٨)، حدث أمر آخر تنازع بسببه سُنَّةُ بغدادَ وشيعتُها، وهو يتعلق بمصحف ابن مسعود، وإعادة تقييم القراءة على وفق المصحف العثماني. وقد بدأ الأمر -في ظروف غامضة- بنهب مسجد الشيعة في بَرَاثا[٦]، وفي قول: بالتهجم مرارًا على أبرز فقيهين شافعيين: القاضي أبي محمد الأكفاني، والشيخ أبي حامد الإسفرائيني. وقد كلف الخليفة لجنة بالنظر، فانتهت إلى أن قراءة ابن مسعود تمثل تحريفًا غير مقبول للنص القرآني[٧].

(١) ثمة ملاحظات على سياسة القادر في: الماوردي، (ص/ ١٣، و٦٣- ٧٦). وانظر في هذه الحادثة سنة (٣٨٣): م، (٧/ ١٧٢)، ب، (١١/ ٣١٢).

(٢) م، (٧/ ٢٠٦)، ب، (١١/ ٣٢٥)، ابن عقيل، (ص/ ٣١٥، ٦)، وفي (ص/ ٣٩٠)، أن الخليفة أصدر تعليمات سياسية محددة لقضاته. انظر: ابن بطة، (رقم/ ٢٢١).

(٣) م، (٧/ ٢٠)، ب، (١١/ ٣٣٠)، وقد أخبرنا ابن الجوزي بهذه المناسبة أنه كان لكل من الحزبين -حزب علي وحزب العباس- عَيَّارون.

(٤) م، (٧/ ٢٢٢)، ب، (١١/ ٣٣٢).

(٥) م، (٧/ ٢٢٦)، ب، (١١/ ٣٣٣)، ابن بطة)رقم ٢٢٢). وترجمة أبي أحمد الموساوي (ت ٤٠٠هـ)، في ب، (١١/ ٣٤٢).

(٦) انظر في شأن مسجد براثا: (٢) EI، (ج/ ١)، ابن بطة، (رقم/ ٩٣).

(٧) انظر في شأن قضية المصحف: م، (٧/ ٢٣٧، ٨)، ب، (١١/ ٣٣٨، ٩)، الماوردي، (ص/ ٦٥، ٦)، ك، (٩/ ٢٠٨).

وفي ليلة الخامس عشر من شهر شعبان لسنة (٣٩٨هـ = ٢٥ أبريل ١٠٠٨م)، جهر أحد الشيعة في كربلاء بلعن (الرجل الذي حرَّق المصحف)، يريد بذلك -بلا شك- الخليفة عثمان، الذي كان الشيعة ينكرون عليه إقصاءَه الإمام عليًّا، واضطهادَه عبدَ الله بنَ مسعود، وأمرَه بإحراق كلِّ ما خالف نسختَه من المصاحف. وعندئذٍ أمر الخليفة بالقبض على هذا المجدِّف، وقتله[١]. وفي الاضطرابات التي أعقبت ذلك -حيث هُتف باسم الحاكم الفاطمي- اضطر الشيخ أبو حامد الإسفرائيني إلى الفرار من بيته، ونُفي الشيخ المفيد، لسان الشيعة الاثنا عشرية. ثم سكنت الأحوال في بغداد بعد أن تدخل الخليفة والأمير البويهي، بطلب من وجهاء المدينة، واستطاع المحتفلون من العامة من كلا الفريقين [السنة والشيعة] -الذين كانوا قد مُنعوا من قبل من إقامة احتفالاتهم في الأماكن العامة- أن يعودوا لسابق عهدهم، شريطة الإمساك عن الأقوال التي تؤرث الإحَن وتوغر الصدور[٢].

وفي الأعوام التالية -حيث كانت الأحوال في مجموعها أكثر هدوءًا بكثير- حقق الخليفة عدة نجاحات مهمة، إذ استطاع الحصول في سنة (١٠١١/٤٠٢) على إدانة رسمية للفاطميين، في محاضر بديوان الخلافة موقعةٍ من قِبل كبار مرجعيات الإمامية وأهل السنة جميعًا[٣].

وفي الاضطرابات التي أعقبت ذلك -حيث هُتف باسم الحاكم الفاطمي- اضطر الشيخ أبو حامد الإسفرائيني إلى الفرار من بيته، ونُفي الشيخ المفيد، لسان الشيعة الاثنا عشرية.

ومن المهم أن نُلحق بهذا السياق السياسي/الديني تلك الردودَ التي صُنفت لدحض مذهب الإسماعيلية، وأشهرها تصانيف المالكي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)[٤]، والمعتزلي أبي سعيد الإصطخري (ت ٤٠٤هـ)[٥]، ومعهما أيضًا -بلا شك- أبو منصور البغدادي (ت ٤٢٩ هـ)، صاحب الكتابين: **أصول الدين والفَرْق بين الفِرَق**[٦]. وقد عولت جميع كتب المقالات والفِرَق السنية على هذا الحجاج الجدلي الذي طعن في الفكر الإسماعيلي وفي نسب الفاطميين.

---

(١) انظر في نقد الشيعة لعثمان، ملاحظاتنا في:
La critique du sunnisme dans la doctrine d'al-Hilli، REI (١٩٦٧م)، (ص/ ٣٥- ٦٠).

(٢) م، (٧/ ٢٣٨)، ابن بطة (رقم/ ٢١١) عن دور الوعاظ [الخطباء] في ذلك العهد.

(٣) ك، (٩/ ٢٣٦)، م، (٧/ ٢٥٦)، ب، (١١/ ٣٤٥)، الماوردي، (ص/ ٦٦، ٧).

(٤) الغزالي، «كتاب الإحياء»، (القاهرة، ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م)، (٢/ ١٢٤)، ابن بطة، (رقم/ ٢٢٣).

(٥) ب، (١١/ ٣٥٢).

(٦) راجع في هذه المسألة دراستنا: La classification des sectes dans le Farq d'al-Baghdâdî، REI (١٩٦١م)، (ص/ ٤٣- ٧).

ثم اندلعت -عقِب هذه الهَدْأة القصيرة- اضطراباتٌ عنيفة امتدت بين سنتي (١٠١٥/٤٠٦، و١٠١٧/٤٠٨)، ففي سنة (٤٠٦) اعترك سُنَّةُ بغدادَ وشيعتُها من جديد، ولم تهدأ ثائرة النفوس إلا بعد أن أذن الوزير فخر الملك للشيعة بعمل عاشوراء[١]. وتكاثرت الحوادث في سنة (١٠١٦/٤٠٧)، فوقعت اضطرابات -لا يُعلم أصلُها، ويبعث القلقَ اجتماعها- في ضريح الإمام الحسين بكربلاء، وفي أماكن مقدسة أخرى ببغداد، وفي مسجد سامَرَّاء الكبير، ووقع سلب ونهب في المساجد الثلاثة الكبيرة بمكة والمدينة وبيت المقدس[٢]. وشهدت سنة (١٠١٧/٤٠٨) -التي جعل منها ابن الجوزي منطلقًا لحركة الإحياء السنية، التي استمرت من عصره، بينما يشير إليها بعض مؤلفي المقالات من أهل السنة بأنها سنة الفتنة الكبرى- تشددًا في سياسة الخليفة القادر، فقد استتاب الشيعة والمعتزلة، وأسفر إلى الأمير محمود الغزنوي يسأله المعونة في الدفاع عن السنة، فأجابه بأنه سيجعل -احترامًا لأمر الخليفة- اللعن على المنابر لكل مبتدع، وأنه أمر بقتل جماعة من دعاة الإسماعيلية، كانوا يقولون بالطبيعة الإلهية للحاكم، الخليفة الفاطمي[٣].

وفي هذه الظروف أمر الخليفة القادر في سنة (١٠١٨/٤٠٩) بقراءة كتاب -في دار الخلافة- ينص على المعتقَد الرسمي للدولة[٤]. وكان ما في هذا الكتاب (المعروف بالقادرية) -الذي أراده الخليفة معتقَدًا لجميع المسلمين- قد وُصف بأنه مذهب السلف، وهو مذهب عقَدي محافظ، ليس فيه شيء من ذلك الطابع الشديد الذي يكسو الكتب التي يعزوها الحنابلة إلى أبي بكر الخلال (ت ٣١١ هـ)، والبَرْبَهَاري (ت ٣٢٩هـ)، وابن بطة (ت ٣٨٧ هـ)، ولكنها تأخذ ببعض آراء هذه المدرسة، كذمِّ الكلام لدى المعتزلة والشيعة. وعلى الرغم من أن أحدًا لم يثر مشكلة الخلافة، فقد أعيد من جديد إعلان مشروعية حكم الخلفاء الأربعة الأُوَل على وفق ترتيبهم التاريخي.

وفي السنوات الأخيرة من حكم القادر نعمت البلاد -بعد الوثيقة القادرية- بهدوء نسبي، فلم يعكر صفوَ النظام العام ببغداد أيُّ اضطراب شعبي. ونجحت الخلافة -من جانب آخر- مرتين في التصدي لمطالبات مشرِّف الدولة: كانت الأولى في سنة (١٠٢٣/٤١٤)، حين رغب الأمير البويهي -عند زيارته لبغداد- في أن يستقبله

(١) م، (٧/ ٢٧٦)، ك، (٩/ ٢٩٥)، ب، (٧/ ٢).

(٢) م، (٧/ ٢٨٣)، ب، (٧/ ٥).

(٣) م، (٧/ ٢٨٧)، ك، (٩/ ٣٠٥)، ب، (٧/ ٦). وانظر في سياسة محمود: ابن بطة، (رقم ٢٢٠، ٢٢٤).

(٤) يوجد نص القادرية في أحداث سنة (٤٣٣)، من: م، (٨/ ١٠٩). وترجمتها الفرنسية في: ابن عقيل، (ص/ ٣٠٤- ٨). وملاحظتنا في: ابن بطة، (رقم/ ٢٢٥).

الخليفة[١]، والأخرى في سنة (٤١٥/ ١٠٢٤) بعد أن استُحلف [الأتراك والمولدون] -بحضور قاضي القضاة وآخرين- على الطاعة له [مشرف الدولة]، دون إذن سابق من الخليفة، فلزمه أن يحلف مرة أخرى على الطاعة والمخالصة لهذا الأخير[٢].

وكان الخليفة القادر يتدخل -بعد أن يُطلب ذلك منه غالبًا- في المنافسة التي طال أمدها -بداءةً من سنة (٤١٦/١٠٢٥)- بين الأميرين البويهيين أبي كاليجار وجلال الدولة، وربما أدرك بعض النجاح أحيانًا في فرض حكمه[٣]. وفي سنة (٤٢٠/١٠٢٩)، أمر بقراءة ثلاثة كتب، نقل إلينا كتاب **المنتَظم** مختصرًا لها، وفيها مثلُ ما كان في القادرية من حطٍّ على الشيعة والمعتزلة[٤].

وفي هذه السنة نفسها وقع آخر الحوادث الخطيرة في مسجد بَرَاثا، فقد كان خطيب هذا المسجد يذكر في خطبته مذهبًا فاحشًا من مذاهب الشيعة [فقُبض عليه في دار الخلافة]، وجاء [في الجمعة التالية] خطيب آخر، فأتى بما وافق السنة [وأحفظ الشيعة]، فرماه العامة حينئذ بالآجُرِّ ودَمَّوْا وجهه. [وعرف الخليفة ذلك فغاظه وأحفظه]، واستدعى نقيب بني طالب، ونقيب بني العباس، وقاضي القضاة، ثم أمر بمكاتبة البويهيين، وجعل تبعة ما وقع على الخطيب الشيعي. على أن الاضطرابات ما لبثت أن زادت، وتوقفت الخطبة في المسجد المذكور، وخُشي من تدخل العيارين من كلا الطرفين، ثم انتهت القضية بعمل تسوية، وعين الخليفة خطيبًا للمسجد جديدًا، وأمره بأن يتحاشى في خطبه ما عساه أن يثير حفيظة أيٍّ من الطائفتين[٥].

وجاء القائم بأمر الله فأخذ بسياسة القادر في الدفاع عن السنة واستعادة سلطان الخلافة. وقد عُرفت الفترة الأولى من حكمه -منذ توليه في سنة (٤٢٢/١٠٣١) إلى دخول السلاجقة بغداد في سنة (٤٤٧/١٠٥٥)- بوجود أزمة في السلطة شديدة الخطورة[٦]، وأمست اللصوصية -وقد تَقَوَّتْ شوكتها بوجود اضطرابات عامة [شعبية]- جُرحًا لا يُؤسَى،

(١) الماوردي، (ص/ ٧٢).

(٢) السابق، (ص/ ٧٢، ٣).

(٣) السابق، (ص/ ٧٣، ٤).

(٤) م، (٨/ ٤١)، وتحليل هذه الكتب الثلاثة في: ابن عقيل، (ص/ ٣٠١- ٣).

(٥) م، (٨/ ٤١- ٥)، ب، (١٢/ ٢٦)؛ الماوردي، (ص/ ٧٥، ٦). [أقول: ما بين المعقوفين زيادة من كتاب «المنتظم»، لابن الجوزي، طلبًا لمزيد من الإيضاح. وحيثما وُجد هذان القوسان في الترجمة فما بينهما زيادة مني على ما في الأصل الفرنسي مأخوذة من المصادر العربية. (المترجم)].

(٦) انظر في حكم القائم ملاحظاتنا في: الماوردي، (١٣، ٧٧- ٩٢)، ك، (٩/ ٤١٨- ٢٠)، (في الاضطرابات بين السنة والشيعة في عام توليه الحكم).

وأشاع البُرْجُمي، كبيرُ العيارين الذي كان يُدعى القاضي أبا علي، الذعرَ في النفوس، فاجتمع على الناس قبيحُ فِعاله وفوضى الجند الأتراك[١]، وبلغ الاضطراب حدًّا منع قافلة الحج العراقية من المسير[٢]. وما أرَّث نارَ الهُياج العام [الشعبي]، الناشئ عن وهَن السلطان، تلك النزاعاتُ التي قامت مرتين بين الخليفة والبويهيين، وذلك في مسألة التلقيب (titulature) في سنة (١٠٣٨/٤٢٩)، ومسألة الجوالي في سنة (١٠٤٢/٤٣٤)[٣]. وقد كان في تعيين ابن المسلِمة في الوزارة -في سنة (١٠٤٥/٤٣٧)- إمدادٌ للخليفة برجل ذي همة وثابة، ومعرفة دينية وثيقة، وكفاية إدارية صقلتها خبرةُ العمل الطويل في الكتابة للخلافة[٤].

وما أرَّث نارَ الهُياج العام [الشعبي]، الناشئ عن وهَن السلطان، تلك النزاعاتُ التي قامت مرتين بين الخليفة والبويهيين، وذلك في مسألة التلقيب (titulature) في سنة (١٠٣٨/٤٢٩)، ومسألة الجوالي في سنة (١٠٤٢/٤٣٤).

وكان هناك -في السنوات التالية، حين دنا الخطر السلجوقي- استحياء لهذه المصادمات الشعبية التي اشتد أُوارها -منذ وصول البويهيين- بين طوائف السنة والشيعة.

وفي العام الذي غزا فيه طُغرل بك أصفهان، (١٠٤٥/٤٣٧)، وقعت مشاجرات مرة أخرى بين السنة والشيعة في بغداد، وصحبتها حوادث خطيرة بين السكان وأهل الكتاب، فنُهبت بيوت بعض اليهود، وأُحرق أحد معابدهم. وفي واسط، وقعت بعض الحوادث أيضًا عند دَفْن أحد النصارى، فانتُهكت بعض القبور، ونُهب

(١) دول في سنتي، (ص/ ٤٢٤، ٤٢٦).

(٢) على سبيل المثال: ب، (١٢/ ٣٧، ٤٧، ٥٠)، ومواضع أخرى.

(٣) انظر في مسألة التلقيب: م، (٨/ ٩٧)، ك، (٩/ ٤٥٩، ٦٠)، ب، (١٢/ ٤٣، ٤). وفي مسألة الجوالي: م، (٨/ ١١٣، ٤)، ك، (٩/ ٥١١)، ب، (١٢/ ٥٠)، وملاحظاتنا في: الماوردي، (ص/ ٧٩- ٨٢). [أقول: المراد بمسألة التلقيب ما ذكره المؤرخون من أنه استقر في رمضان من سنة (٤٢٩هـ): «أن يُزاد في ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، فأمر الخليفة بذلك، فخُطب له به، فنَفَر العامة، ورَمَوا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة». (ابن الجوزي، المنتظم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. ١٥/ ٢٦٤). والمراد بالمسألة الأخرى «أن الجوالي افتتحت في أول المحرم، فأنفذ الملك أبو طاهر من منع أصحاب الخليفة عنها، وأخذ ما استخرجوه منها، وأقام فيها من يتولى جبايتها، وشق على الخليفة ذلك، وترددت فيه المراسلات، ولم تنفع، فأظهر العزم على مفارقة البلد». السابق، (ص/ ٢٨٥). والجوالي «تعبير اصطلح على استخدامه في سوريا والعراق ومصر للدلالة على الجزية، كما كان يطلق على الرسوم التي يتم تحصيلها من الجماعات المقيمة فيها، وقيل: هي جمع جالية، ويقصد بها غير المسلمين». سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (٤٣)، (١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م). (ص/ ٨٧، ٨٨). (المترجم)].

(٤) انظر طرفًا من سيرة ابن المسلمة في: م، (٨/ ٢٠٠، ١)؛ ب، (١٢/ ٨٠)؛ وملاحظاتنا في: الماوردي، (١٥، ٥٣، ٤)، (٢) EI، (ج/ ٣). [أقول: ابن المسلمة، (٣٩٧/ ١٠٠٧- ٤٥٠/ ١٠٥٩)، علي بن الحسن بن أبي الفرج أحمد، أبو القاسم، المعروف برئيس الرؤساء: من خيار الوزراء علمًا وعدلًا. حسيب نسيب. بارع في العلوم، استكتبه القائم بأمر الله العباسي، ثم استوزره. كان سديد الرأي، وافر العقل. قتله البساسيري، (أرسلان بن عبد الله) ومثّل به في إبان استيلائه على بغداد، ودعوته للفاطميين. (المترجم)].

أحد الأديرة[١]. وفي سنة (١٠٤٧/٤٣٩) وقعت اضطرابات أخرى بين السنة والشيعة في بغداد[٢].

ووافق تولِيَ الملك الرحيم تفشي الاضطرابات الشيعية التي تجسدها -في كل عام تقريبًا- حوادث خطيرة. وفي سنة (١٠٤٨/٤٤٠)، حال تشوش الأحوال دون خروج قوافل الحجيج[٣]. وفي سنة (١٠٤٩/٤٤١)، اعترك السنة والشيعة، وتحصن كلٌّ في منازله، وتدخل بينهما جيش مؤلف من عشيرتين[٤].

وفي العام التالي، (١٠٥٠/٤٤٢)، وقع صلح رائع -من حيث الظاهر على الأقل- بين السنة والشيعة، وذهبوا جميعًا لزيارة ضريحي الإمام علي والإمام الحسين. وقد استغرب ابن كثير هذا الحدث، ففسره بالتقية، بينما رد الذهبي الفضل فيه إلى كفاية صاحب الشرطة، ابن النَّسَوي، وإلى سياسة ابن المسلمة[٥]. على أن هذا الصلح لم يدم إلا قليلًا، ثم تجددت الفتنة بينهما في بغداد -في عنف نادر- في سنة (١٠٥١/٤٣٤)، وانتهكت بعض القبور، وهمَّ الشيعة -فيما يقال- بانتهاك قبر أحمد بن حنبل، لولا أن نقيب العلويين ثناهم عن هذا الأمر، وامتنعوا لبعض الوقت عن ذكر اسم الخليفة العباسي في خطبهم[٦]. والحق أن إدانة الفاطميين في سنة (١٠٥٢/٤٤٤) -التي تماثل ما وقع في سنة (١٠١١/٤٠٢)، ووقّع عليها حينذاك كبار علماء السنة والشيعة- كانت تمثل نجاحًا للخليفة غير منكور[٧]. وفي سنة (١٠٥٣/٤٤٥)، وقعت الفتنة مرة أخرى بين السنة والشيعة، وسَرَت شائعة في بغداد أن المستنصر عازم على غزو العراق[٨].

وفي هذه السنة نفسها -التي أدان فيها طغرل بك الأشاعرة رسميًّا، بتأثير من وزيره الكُندُري[٩]- اتخذ ابن المسلمة سياسةَ مصالحة سنية تُجمع على المعتقَد المأثور عن السلف، معلنًا في جمع غفير أن (القرآن كلام الله، وأن أحاديث الصفات ينبغي أن تروى كما بلغتنا)، وكان ممن حضر هذا الاجتماع المشهود -في قصر الخلافة- القاضي أبو يعلى[١٠]. وفي هذه الحقبة ثار البساسيري، متهمًا ابن المسلمة بالتهيئة لقدوم طغرل بك إلى بغداد،،

(١) ك، (٩/ ٥٣١)، ب، (١٢/ ٥٤)، م، (٨/ ١٢٧).

(٢) ب، (١٢/ ٥٦).

(٣) م، (٨/ ١٣٦)، ب، (١٢/ ٥٨).

(٤) م، (٨/ ١٤١)، ب، (١٢/ ٥٩).

(٥) م، (٨/ ١٤٥)، ب، (١٢/ ٦١).

(٦) م، (٨/ ١٤٩)، ب، (١٢/ ٦٢، ٣)، ك، (٩/ ٥٧٥- ٨).

(٧) م، (٨/ ١٥٣)، ك، (٩/ ٥٩١، ٢)، ب، (١٢/ ١٦٣).

(٨) م، (٨/ ١٥٧)، ك، (٩/ ٥٩٣)، ب، (١٢/ ١٦٤).

(٩) م، (٨/ ١٥٧)، ب، (١٢/ ٦٤)، وملاحظاتنا في: الماوردي، (ص/ ٥٤، ٥).

(١٠) ابن عقيل، (ص/ ٣٤٦، ٨).

وجاب الثوار المدينة ليطلبوا من الخليفة أن يعزل وزيره، ويصادر أمواله، بيد أن الخليفة لم يستجب لهم، وجدد ثقته في ابن المسلمة، وكساه حلة الشرف، وأمره بإمامة الصلاة في مسجد المنصور[١]. وفي سنة (١٠٥٥/٤٤٧)، وقعت حادثة أخرى أثارت الرأي العام بشدة، فقد هوجم -في مرفأ باب الزَّج- قارَب محمل بالخمور للبساسيري، وكان الشريف أبو علي بن سُكَّرة -أحد مناصري الحنابلة البارزين في بغداد- هو من قاد هذا الهجوم مع (أصحاب عبد الصمد)[٢]. وفي غمرة هذه الفوضى والانقسامات الداخلية العميقة، تمكن السلطان السلجوقي طغرل بك من دخول بغداد، في رمضان من سنة (٢٤/٤٤٧ نوفمبر - ٢٣ ديسمبر ١٠٥٥)، بينما أخذ البساسيري -بعد رجوعه إلى الرحبة- في الدعوة إلى الفاطميين[٣].

ولم تزل مسألة العلم بمن حمل السلطانَ السلجوقي على أن يتصرف على هذا النحو موضعَ خلاف شديد إلى وقتنا هذا: أهو الخليفة أم وزيره [ابن المسلمة]. وقد وجد كلا الرأيين من يؤيده من المؤرخين المسلمين، فذهب صاحب **المنتظم** -ووافقه الذهبي وابن كثير- إلى أن الخليفة هو الذي حرض طغرل بك على التدخل فرارًا من التهديد الفاطمي[٤]، وهو زعم يصعب التوفيق بينه وبين ما نعلمه من النفور الذي تثيره القبائل السلجوقية -بما تحدثه من ضروب الفساد- فيما تغزوه من البلاد.

وفي سنة (١٠٥٥/٤٤٧)، وقعت حادثة أخرى أثارت الرأي العام بشدة، فقد هوجم -في مرفأ باب الزَّج- قارَب محمل بالخمور للبساسيري، وكان الشريف أبو علي بن سُكَّرة -أحد مناصري الحنابلة البارزين في بغداد- هو من قاد هذا الهجوم مع (أصحاب عبد الصمد).

ولا يمكن -من جانب آخر- إغفال ما جاء في **المنتظم**[٥] عن لقاء النهروان -حيث كان ابن المسلمة قد تلقى رسالة بالمضي أمام السلطان السلجوقي- سواء من حيث الطريقة التي فسر السلطان به مقدمه، أم من حيث رد الوزير عليه.

على أن طغرل بك لم يشر قطّ إلى أنه تلقى طلبًا مباشرًا من الخليفة، وإنما ذكر أنه ما ورد بغداد إلا منصرفًا عن الأوامر

(١) م، (٨/ ١٥٩، ٦٠)، ب، (١٢/ ٦٥).
(٢) ابن عقيل، (ص/ ٣٣٤).
(٣) م، (٨/ ١٦٤).
(٤) ب، (١٢/ ٦٦).
(٥) م، (٨/ ١٦٤).

السامية، وممتثلًا للمراسم العالية، ومتميزًا عن ملوك خراسان بالدنو من هذه الخدمة الشريفة [خدمة الخليفة]، ومنتقمًا من أعدائها، وسائرًا إلى بلاد الشام لفتحها، وإصلاح طريق الحج. وفي هذا ما يُشعر أن الخليفة ووزيره -بقطع النظر عمن دعاه منهما- قد رأيا في دخوله بغداد ضرورةً لا معدى عنها، وقد كان السلطان هو من اتخذ القرار لحاجةٍ في نفسه. وثمة ملاحظات أيضًا على جواب ابن المسلمة، فقد قال للسلطان: إن الله تعالى أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، وسأله في الأمير البويهي [الملك الرحيم] أن يجريه مجرى أولاده، وألا يَرزأه في مُلكه، فقبل السلطان كل ذلك وتعهد به.

على أن السلطان لم يفِ بشيء من هذه العهود، وما عتَّم حتى قطع ذِكْر الملك الرحيم من الخطبة، وأسره [في القلعة]، ثم استقر هو في دار المملكة. وفي الثاني من شوال لسنة (٤٤٧/الخامس والعشرين من ديسمبر لسنة ١٠٥٥) أُعلن رسميًّا سقوط دولة بني بويه[١]. وليس من شك في أن الخليفة القائم قد منح السلطان ألقاب ركن الدين، وشاهنشاه، وملك الملوك، ولكنه لم يأذن له بالاجتماع به، وكانت هذه إهانة كبيرة في ذلك الوقت، وفي عرف النظام سياسي كان يعد الاحتفال بلقاء الخليفة أمرًا بالغ الأهمية في إظهار السلطة. وبقي السلطان السلجوقي ثلاثة عشر شهرًا في بغداد دون أن يلقى الخليفة، حتى نال ذلك في سنة (١٠٥٨/٤٤٩)، حين انتصر على البساسيري في الموصل، وكان هذا أول لقاء بين الرجلين؛ أي بعد انصرام عامين من دخول القبائل السلجوقية بغداد[٢].

وثمة ملاحظات أيضًا على جواب ابن المسلمة، فقد قال للسلطان: إن الله تعالى أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، وسأله في الأمير البويهي [الملك الرحيم] أن يجريه مجرى أولاده، وألا يَرزأه في مُلكه، فقبل السلطان كل ذلك وتعهد به.

وقد أخلف السلاجقة مرة أخرى عهودهم التي بذلوها في نصرة الخلافة والمذهب السني، فلم يصنعوا شيئًا -بعد ما أحرزوه من نصر- ضد الباطنية في مصر وسوريا، ولا أمَّنوا طرق الحج مما كان يحف بها من مخاطر،

(١) م، (٨/ ١٦٤)، ب، (١٢/ ٦٦).

(٢) انظر في هذه المسألة ملاحظات جورج مقدسي في: ابن عقيل، (ص/ ٩٧، ٨).

وكان بأسهم بينهم شديدًا، فشُغل الأمراء بالصراع الدائر بينهم عن تنفيذ سياسة سنية منظمة، حتى أمسى قدومهم إلى بغداد مصدر اضطرابات جديدة، لا سببًا في شيوع السلام. وقد تجلى ذلك عندما اضطر طغرل بك إلى الرحيل عن العراق إلى آذَرْبَيْجان لقتال إنال. وقد اضطرمت الفتن مرة أخرى بين السنة والشيعة في سنة (١٠٥٧/٤٤٩)، فأحرقت دار العلم لسابور، وكذلك أحرقت دار المتكلم الإمامي الكبير، أبي جعفر الطوسي، فلجأ هو إلى النجف[١].

وقد بلغت الاضطرابات ذروتها في بغداد، في سنة (١٠٥٨/٤٥٠)، التي عُرفت (بسنة فتنة البساسيري). وليس يعنينا هنا أن نأخذ في الحديث عن هذه الفتنة، فقد توفرت على بحثها دراساتٌ مفصلة، ولكن أن نبرز -من بين هذه الاضطرابات- دور الخلافة والخليفة نفسه[٢]. وقد استولى البساسيري على بغداد في أواخر سنة (٤٥٠/يناير ١٠٥٩)، فنَهب شيعةُ الكرخ أكثر باب البصرة من أهل السنة [تشفيًا لأجل المذهب]، ونُهبت كذلك دار قاضي القضاة الحنفي [أبي عبد الله] الدامغاني، وهلك أكثر السجلات والكتب الحُكمية، فبيعت على العطارين، ونُهبت دور المتعلقين بالخليفة[٣].

وطلب الخليفة نفسه، مع أهله ووزيره، الحمايةَ من صاحب الموصل، قريش بن بدران العقيلي، الذي كان يتخذ سياسة انتهازية متطلعة نحو مستقبل غير مأمون. وقد أسلم ابنَ المسلمة إلى البساسيري، فقتله هذا الأخير شرَّ قِتلة، وأبى أن يسلم الخليفة، وإنما جعله في حماية ابن عمه مُهارِش، صاحب حديثة عانة، وهو رجل ذو دين، يكرم ضيفانه[٤].

وتُبين المناقشات التي دارت حول مصير القائم مدى الأهمية التي كان كلا الحزبين ينوطها بمنصب الخلافة، بوصفه أعلى مصدر لشرعية السلطة. فقد كان قريش ومهارش يودان رد الخليفة، بشرط أن يكون آمنًا، وشرط البساسيري هو الآخر شروطًا: أن يكون هو النائب على باب الخليفة، والقائد العسكري الأوحد(أ)، وردَّ خوزستان

(١) م، (٨/ ١٧٩)، ب، (١٢/ ٧١).

(٢) قصة فتنة البساسيري في: م، (٨/ ١٩٠)، وما بعدها؛ ك، (٩/ ٦٣٩- ٥٠)، ب، (١٢/ ٧٦، وما بعدها)؛ ابن عقيل، (ص/ ٩٠، ١٠٢)، (٢) EI، (ج/ ١).

(٣) ب، (١٢/ ٧٧).

(٤) ب، (١٢/ ٧٨، ٩).

(أ) كذا في الأصل، والذي في المنتظم: «والخادم دون غيره». (المترجم).

(ب) كذا في الأصل، وليس في المنتظم هذا الشرط، وإنما فيه: «وبعَثَ مع رسل السلطان طغرل بك إلى الخليفة من يتولى إحلاف الخليفة له على ما اشترط». (المترجم).

والبصرة إليه على قديم عادته، واجتماع رسله مع رسل طغرل بك في حضرة الخليفة(ب). وقد قبل السلطان هذه الشروط، وحلف الخليفة عليها[١]. وكذلك استُعيد في النهاية نظام أمير الأمراء، وغدا البساسيري -في مواجهة القوتين العظميين في ذلك العصر، السلاجقة والفاطميين- هو الضامن لاستقلال الخليفة.

وقد علمنا إلى أي شيء آلت الأمور، حيث رجع طغرل بك إلى بغداد في نهاية سنة ٤٥١، وكان قد لقي الخليفة في النهروان، وجدد له العهد بنصرة السنة، وباستعادة سلطة الخلافة[٢]. وقوتل البساسيري وقُتل، غير أن مكروهًا لم يصب الفاطميين ولا غيرهم من الجماعات المنشقة. وقد أثار إصرار السلطان الزواج من إحدى بنات الخليفة حنق هذا الأخير، إذ كان يعده -على الرغم مما أبداه من قبول- مجلبة عار[٣]؛ ولذلك ظل في بغداد تيار معاد للسلاجقة، ليس بين العامة فحسب، ولكن بين من كان في دائرة الخلافة أيضًا. ولم يجلب حكم ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥/١٠٦٣-٧٢) السكينة والهدوء إلى العاصمة العراقية الكبيرة[٤]، غير أن الصراعات تبدلت وجهتُها، فلم تعد تثور ثائرتها -كالحال فيما مضى- بين السنة والشيعة، ولكن بين الاتجاهات المختلفة المؤسِّسَة للسنة، ولم تخلُ من عنف في بعض الأحيان.

وقد أسهمت سياسة نظام المُلْك -التي تميل إلى الأشعرية، وإلى المذهب الشافعي، وإلى التصوف- على نحو كبير في تأريث نار الاضطرابات من جديد. ففي سنة (٤٥٩/١٠٦٧) افتُتحت [المدرسة] النظامية التي كان يقصد بها -كما جاء في وثيقة تأسيسها- أمران: تدريس الفقه الشافعي، وتأسيس مؤسسة وعظية تنشر مقالات المذهب الأشعري، مع ما تقوم به من الوعظ[٥].

وقد ساء إنشاءُ النظامية -علاوةً على ارتباطه بوقوع حادثة[٦]- المذهبين السنيين الآخرين الأكثر تأثيرًا في بغداد: الحنفية، والحنابلة، وكان الأمر على هؤلاء أشق. فأما الحنفية فبادروا برد فعلهم حين قام أبو سعيد المستوفي -وهو أحد تجار بغداد الكبار، وكان يرعى العلم والعلماء على ما جرت به سنّة ذلك العصر- ببناء مشهد أبي حنيفة، وعمل

(١) م، (٨/ ٢٠٥).

(٢) ب، (١٢/ ٧٨، ٩).

(٣) انظر في شأن الزواج: ابن عقيل، (ص/ ١١٨، ٩).

(٤) انظر في حكم ألب أرسلان: (٢) EI، (ج/ ١).

(٥) انظر في النظامية وافتتاحها: م. (٨/ ٢٦٤)، وفي وقفيتها خاصة، (٩/ ٦٥، ٦)، (في ترجمة نظام الملك).

(٦) قصة افتتاح النظامية في سنة (٤٥٩) في: ابن عقيل، (ص/ ٢٠٤، ٢٠٧).

المدرسة بإزائه لتدريس الفقه الحنفي، وقد غدت هذه المدرسة أهم مدارس الفقه الحنفي ببغداد[١]. وأما الحنابلة فكانت المعارضة لديهم أشد، وكان لهم تأثير في معظم العامة في بغداد. وبعد وفاة القاضي أبي يعلى (ت ٤٥٨هـ) كان الشريف أبو جعفر (ت٤٧٠هـ) -ابن عم الخليفة- هو الرجل الأكثر نشاطًا وتمردًا بين الحنابلة العراقيين، وقد أخذ على عاتقه العمل بمذهب الحنابلة في الدفاع عن الخلافة وعن المذهب السني، فعارض سياسة نظام [الملك]، وأنكر على السلاجقة انتهاكهم صلاحيات الخلافة[٢].

ولكنه لم يوحد الحنابلة على الرغم من ذلك، وحورب -في بلاطة الخلافة نفسه- من قِبل أبي محمد التميمي (ت ٤٨٨هـ)، الذي يجسد بوضوح شخصية الحنبلي الانتهازي الموالي للحكومة، الأكثر لينًا، غير أن تأثيره كان واسعًا على الجماهير[٣].
وقد هجم جماعة من أصحاب عبد الصمد (ت ٣٩٧هـ) -في سنة (١٠٦٤/٤٥٦)- بعد تعيين ألب أرسلان نظامَ الملك وزيرًا، وقبل تأسيس النظامية - على [أبي علي] ابن الوليد (ت ٤٧٨هـ)، المدرس لمذهب المعتزلة[٤]. وليس من شك في أن المعتزلة كانوا مقصودين بهذا الهجوم مباشرة، ولكن كان مقصودًا به من وراء ذلك أيضًا علمُ الكلام، ولا سيما الأشعري. وبعد إنشاء النظامية زادت الاضطرابات الأكثر خطورة، مما يدل على وجود توتر بين المذاهب السنية، وعلى عدم الرضا عن السياسة النظامية والسلجوقية.

وأما الحنابلة فكانت المعارضة لديهم أشد، وكان لهم تأثير في معظم العامة في بغداد. وبعد وفاة القاضي أبي يعلى (ت ٤٥٨هـ) كان الشريف أبو جعفر (ت٤٧٠هـ) -ابن عم الخليفة- هو الرجل الأكثر نشاطًا وتمردًا بين الحنابلة العراقيين، وقد أخذ على عاتقه العمل بمذهب الحنابلة في الدفاع عن الخلافة وعن المذهب السني، فعارض سياسة نظام [الملك]، وأنكر على السلاجقة انتهاكهم صلاحيات الخلافة.

وفي ١٥ من جمادى الأولى، اجتمع الحنابلة بقيادة الشريف أبي جعفر، و[أعيان] أصحاب الحديث بالديوان العزيز، وسألوا إخراج الاعتقاد القادري وقراءته، فأجيبوا وقرئ هناك بمحضر من الجمع، وكان الأشعري ابن فُورك حاضرًا -فيما روي-

(١) انظر في رد الفعل الحنفي: م، (٨/ ٢٤٥)؛ ابن عقيل، (ص/ ١٨٦، ٧).

(٢) انظر في الشريف أبي جعفر: ابن بطة، (رقم ٢٥١)؛ ابن عقيل، (٢٤٠- ٥٠).

(٣) انظر في أبي محمد التميمي: ابن بطة)رقم/ ٢٦٢)، ابن عقيل، (ص/ ٢٦٩- ٧٤).

(٤) م، (٨/ ٢٣٥)، ب، (١٢/ ٩١).

فقال: لا اعتقاد لنا إلا ما اشتمل عليه هذا الاعتقاد. وقد قرئ الاعتقاد القادري مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع؛ أي في السابع من جمادى الآخرة من سنة (٤٦٠هـ = ١٣ من أبريل سنة ١٠٦٨)[١].

ويرتبط بهذه الأحداث الهجومُ الأول على ابن عقيل (ت ٥١٣ هـ) -ذي المكانة المرموقة في تاريخ المذهب الحنبلي- الذي وقع في سنة (١٠٦٩/٤٦١)، وكان ذلك بزعامة الشريف الذي رمى المتكلم الشاب بتهمتين: أولاهما أنه يذهب مذهب ابن الوليد المعتزلي، والأخرى أنه يترحم على الحلاج[٢]. والحق أنه كان للمعتزلة دائمًا أنصار. ومنذ عهد الوزير ذي النزعة الحلاجية، ابن المسلمة، وثمة تيار يتجه إلى إعادة تأويل [مقالات] هذه الشخصية الصوفية البارزة. وعلى الرغم من أننا لا نعلم الظروف التي حملت ابن عقيل على أن يجنح إلى آراء الحلاج، فإنه لا يمكن التغافل عن أنه كان كثيرًا ما ينقل في كتبه عن أبي الحسن القزويني (ت ٤٤٢هـ)، وأبي بكر الدِّينوري (ت ٤٤٩هـ)[٣].

(١) م، (٨/ ٢٤٨، ٩)، ب، (١٢/ ٩٦).

(٢) ب، (١٢/ ٩٨)، ابن عقيل، (ص/ ٤٢٤- ٦)؛ ابن بطة، (رقم/ ٢٥٨).

(٣) انظر في أبي الحسن القزويني، (ت ٤٤٢هـ): م، (٨/ ١٤٦)، ابن عقيل، (ص/ ٣٩٥). وفي أبي بكر الدِّينَوَري، (ت ٤٤٩هـ): ابن عقيل، (ص/ ٣٩٥).
(ج) القُرَاضَة من المال: رديئه وخسيسه، ولعل المراد الأموال الزائفة، وبهذا ترجمها لاؤوست، (des monnaie altérées). (المترجم).

وقد تجاوزت مظاهرة سنة (١٠٧٢/٤٦٤) حدود الحنابلة، فلم يكن أبو جعفر وحده هو من دعا إليها، وإنما شاركه ذلك أبو إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٨هـ)، شيخ النظامية، وكانت مطالبهم التي رفعوها إلى الخليفة سياسية أكثر منها دينية، فطلبوا قلع المواخير التي كان الجند يترددون عليها، وتتبع المفسدات ومن يبيع النبيذ، وضرب دراهم تقع المعاملة بها بدل القُراضة(ج). ويبدو أن الخليفة تأثر لذلك تأثرًا كبيرًا، كما أن الرواية التاريخية تشير إلى أنه قبل هذه المطالب من حيث الأساس، وإن كان غير قادر على اتخاذ قرار ذي شأن دون الرجوع إلى السلطات السلجوقية[٤].

وتمثل توبةُ ابن عقيل العلنيةُ في سنة (١٠٧٣/٤٦٥) -التي لم تصحبها اضطراباتٌ شعبية بالمعنى المعروف، والتي وقعت بتأثير الشريف أبي جعفر، وبالتعليقات التي أثارتها، والتوتر الداخلي الذي كشفت عنه بين أهل السنة- خصيصةً من خصائص الحياة الدينية في بغداد في العقود الأولى لهيمنة السلاجقة. وفي نص هذه التوبة -الذي لم يزل محفوظًا- تبرأ ابن عقيل من مقالات المعتزلة، ومن صحبة ابن الوليد، وأقر بأن الحلاج قُتل

(٤) ابن بطة، (رقم/ ٢٥٩)؛ م، (٨/ ٢٧٢)، ب، (١٢/ ١٠٥).

بإجماع فقهاء عصره، وأنهم أصابوا في ذلك، وتبرأ كذلك من كل البدع، وأقر بكل ما وُجِّه إليه من نقد، وأكد أنه في توبته غير مجبَر ولا مكرَه[١].

وقد استمرت الاضطرابات الدينية في بغداد، في أثناء حكم ملكشاه (٤٦٥-١٠٧٢/٨٥-٩٢)، ومن أبرزها الصدام -المصحوب بالعنف غالبًا- بين الحنابلة والأشاعرة، ثم تجدد الصراع -بسعي منهم يقينًا- بين السنة والشيعة في النصف الثاني من هذا الحكم. على أن الحدث الأشد خطورة هو ما أطلق عليه المؤرخون المسلمون **فتنة ابن القشيري**، وهي سلسلة من المظاهرات والاضطرابات الشعبية -التي صحبها العنف غالبًا- بدأت في شوال لسنة (٤٦٩/أبريل - مايو ١٠٧٧)، وانتهت في منتصف صفر لسنة (٤٧٠/سبتمبر ١٠٧٧)، ولكنها امتدت بعد ذلك في طائفة من الحوادث إلى سنة (٤٧٥/١٠٨٣)، مقسِّمة أهل السنة إلى حزبين، ومخلِّفة وراءها مشكلة سياسية في العلاقة بين الخلافة والسلطنة[٢]. والخطيب أبو النصر القشيري -الشهير بابن القشيري- هو ابن العلَم الكبير أبي القاسم القشيري (ت ٤٦٥هـ)، وكان -كأبيه- أشعريًّا صوفيًّا. قدم بغداد بعد أن ولاه نظام الملك أمر الوعظ في النظامية، وكان من العسير على أشعري مثله ألا يعرض في بعض خطبه للمسائل الخلافية بين الحنابلة والأشاعرة، فلما انتهى إلى مسألة الكلام النفسي الإلهي -الشهيرة في المذهب الأشعري- رمى الحنابلة بالتجسيم (anthropomorphisme)، وكان هذا من أغلظ التشنيعات التي أدت إلى إدانة ابن حنبل وأصحابه في عهد الراضي.

على أن الحدث الأشد خطورة هو ما أطلق عليه المؤرخون المسلمون فتنة ابن القشيري، وهي سلسلة من المظاهرات والاضطرابات الشعبية -التي صحبها العنف غالبًا- بدأت في شوال لسنة (٤٦٩/أبريل - مايو ١٠٧٧)، وانتهت في منتصف صفر لسنة (٤٧٠/سبتمبر ١٠٧٧).

والحق أن التهمة كانت بالغة الخطورة حتى إنها انتهت بانقسام المتكلمين السنيين إلى فريقين، وتبع كلَّ فريق شيعتُه. وكان أشهر من شايع ابنَ القشيري أبا إسحاق الشيرازي الذي تدخل -وقد أعلن تمسكه بمذهب السلف- بوصفه شيخ النظامية[٣]، وأبا سعد الصوفي (ت

(١) م، (٨/ ٢٧٥، ٦)، ب، (١٢/ ١٠٥، ٦)، ابن عقيل، (ص/ ٢٢٦- ٤٠)، ابن بطة، (رقم/ ٢٦٠).

(٢) حكاية فتنة ابن القشيري في: م، (٨/ ٣٠٥- ٧)؛ ب، (١٢/ ١١٥، ١١٧- ٩)؛ ذيل، (١/ ٢٥- ٩)، ابن عقيل، (ص/ ٣٥٠- ٦٦)؛ ابن بطة، (رقم/ ٢٦١)، ولم يفرد لها ابن الأثير سوى بعض الأسطر، انظر: ك، (١٠/ ١٠٤، ٥).

(٣) انظر في أبي إسحاق الشيرازي، (ت ٤٧٦هـ): م، (٩/ ٧، ٨)؛ ب، (١٢/ ١٢٤، ٥)، ابن عقيل، (ص/ ٢٠٤، ٦).

٤٧٧هـ) الذي كان قد أسس رباطًا شهيرًا في بغداد[١]. وقد استطاع ابن القشيري أن يعتمد أيضًا على تأييد نظام [الملك] والشحنة، الذي كان يمثل قوة السلطنة في بغداد، حيث تأتمر الشرطة بأمره. وكان على رأس خصوم ابن القشيري الشريف أبو جعفر، الذي كان دائمًا في طليعة الدفاع عن مذهب السلف (tradition)، ومعه تاجر حنبلي، واسع الثراء شديد التأثير، يدعى أبا عبد الله ابن جردة (ت ٤٧٦هـ)، قام بكثير من الأعمال الدينية، وكان يطوي صدره على حماسة لا تفتر في المنافحة عن الخلافة وعن المذهب السني[٢].

وكان على رأس خصوم ابن القشيري الشريف أبو جعفر، الذي كان دائمًا في طليعة الدفاع عن مذهب السلف (tradition)، ومعه تاجر حنبلي، واسع الثراء شديد التأثير، يدعى أبا عبد الله ابن جردة (ت ٤٧٦هـ).

وبين الفريقين المتخاصمين قامت سلطات الخلافة: فثمة الخليفة المقتدِي من جانب، وثمة الوزير فخر الدولة ابن جهير من جانب آخر، وكان ابنه عميد الدولة قد تزوج من إحدى بنات نظام الملك في سنة (٤٦٢هـ)[٣]. وقد اضطُّرت الخلافة -لحرصها على تجنب فريق المحافظين، المؤيَّدِ بقوة من العامة، وكذلك على تجنب السلطات السلطانية- إلى اتباع سياسة التهدئة والتوفيق، وإن لم يخلُ ذلك من صعوبة.

وتوالت الخطوب سريعًا، فحدثت بلبلة شديدة في بغداد، واعتنق نفر من اليهود والنصارى الإسلام بعدما ألقى ابن القشيري بعض الخطب في النظامية، فأظهر أتباعه السرور والبِشْر لِما رأوا من قوة تأثيره، وأنكر أتباع أبي جعفر ذلك في مظاهرات عنيفة، وكانوا يقولون: (هذا إسلام الرشاء) (د). وقد أرسل أبو إسحاق الشيرازي وفدًا برسالة إلى نظام [الملك](هـ). ومضى

(١) انظر في أبي سعد الصوفي أو النيسابوري، (ت ٤٧٧هـ): ب، (١٢/ ١٢٦).

(٢) راجع في أبي عبد الله ابن جردة، (ت ٤٧٦هـ): ابن عقيل، (ص/ ٢٧٧، ٨).

(٣) راجع في فخر الدولة وعميد الدولة ابن جهير: ابن عقيل، فهرس فرعي، (ابن جهير).

(د) يبدو الكلام هكذا مضطربًا، والمروي في كتب التاريخ أن ثمة من كان يعين ابن القشيري، (ولعله نظام الملك) ببذل الأموال لليهود حتى يسلموا على يديه، فكان العامة يقولون: «هذا إسلام الرشاء، لا إسلام التقى»، ولو كان إسلام اليهود تأثرًا بوعظ ابن القشيري -كما ذكر الكاتب- لما كان لهذه الكلمة معنى. (المترجم).

(هـ) في (المنتظم)، و(البداية والنهاية)، أنَّ أبا إسحاق الشيرازي كتب إلى نظام الملك يشكو الحنابلة ويسأله المعونة، وليس فيه ذكر لأي وفد، (انظر حوادث سنة ٤٦٩هـ في الكتابين). (المترجم).

(و) جاء في «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب عند ذكر هذه الحادثة: «... وأغلق أتباع ابن القشيري أبواب مدرسة النظام، وصاحوا: المستنصرَ بالله! يا منصور -يعنون العُبيدي صاحب (مصر)- وقصدوا بذلك التشنيع على الخليفة العباسي، وأنه ممالئ للحنابلة، لا سيما والشريف أبو جعفر ابن عمه». [«ذيل طبقات الحنابلة»، (١/ ٣٩، ٤٠)]، فلم يكن الشيعة إذن هم من هتف - كما ذكر لاؤوست- باسم المستنصر، وإنما هتف باسمه أتباع ابن القشيري من الأشاعرة. (المترجم).

ابن القشيري -مؤيدًا بشرطة الشحنة- ليلقي خطبة جديدة ضد الحنابلة في جامع الرُّصافة، فمضى الشريف -وقد عجز عن منعه- إلى الخليفة شاكيًا. وفي السادس من ذي القعدة لسنة (١١/٤٦٩ من يونيو ١٠٧٦)، خطب ابن القشيري خطبة جديدة في النظامية، فأسلم يهودي، فحُمل -على ما جرت به العادة- على دابة، وطيف به في المدينة ابتهاجًا [بإسلامه]، ونُظمت مظاهرات معادية، وتمالأ طلاب النظامية الأشاعرة على الهجوم على أبي جعفر في مسجده بباب النوبي، غير أنهم [لما وصلوا إلى باب المسجد] رماهم أتباع الشريف بالآجُرِّ، فلاذوا بمدرستهم، فمضى بعض أتباع ابن القشيري يشكون إلى الخليفة واتهموه بأنه يساند الحنابلة، وقام بعض الشيعة فهتفوا باسم الخليفة الفاطمي المستنصر(و).

ولم يكن للخليفة من همٍّ إلا استعادةُ الهدوء، فأمسك الشريف أبا جعفر في قصره، ولكنه لم يمنع ابن القشيري من أن يلقي خطبة في مسجد القصر في (٢٢ من ذي القعدة لسنة ٢٧/٤٦٩ من يونيو لسنة ١٠٧٦). على أن ابن القشيري لم يستطع الكلام إلا في حماية حرس الخليفة، وإن كان ذلك لم يمنع وقوع الحادثة التالية: فقد قام أعمى بتلاوة الآيات القرآنية التي تذكر كلام الله، وما نُسب إليه من الأقدام، والأيدي، والوجه، معلنًا بذلك -في تحدٍّ ظاهر- تمسكه بظاهر [حرفية] هذه النصوص، غير أن الحرس أسكتوه ثم طردوه.

وفي المحرم من سنة (١٠٧٧/٤٧٠)، رجع الوفد المرسَل إلى نظام الملك محملًا برسالتين من الوزير: إحداهما إلى فخر الدولة، والأخرى إلى عميد الدولة، وقد بقي نص أولاهما، وفيها يدافع نظام الملك عن المدرسة النظامية، مظهرًا إيثاره للشافعية والحنفية، وتَجنبَ الكلام في ابن حنبل، ولكنه اتهم أتباعه بالخروج عن مذهبه، وبأنهم مبتدعة[1]. وقد عقد الوزير فخر الدولة -بأمر من الخليفة- اجتماعًا خاصًّا بين الشريف أبي

(١) انظر ترجمة جورج مقدسي في: ابن عقيل، (٣٥٩- ٦١). [أقول: ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» رسالة نظام الملك إلى فخر الدولة في أحداث سنة (٤٦٩هـ)، لا في سنة (٤٧٠هـ)، وفيها أنه أنكر ما وقع من الفتنة، وكره أن ينسب إلى المدرسة التي بناها شيء من ذلك. ثم ذكر في أحداث سنة (٤٧٠هـ) مضمون رسالته إلى أبي إسحاق الشيرازي، وقد أوردها صاحب المنتظم بنصها، ومما جاء فيها: «... وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن»، ثم ذكر أن الغاية من بناء النظامية إنَّما هو صيانة أهل العلم والمصلحة، لا الاختلاف وتفريق الكلمة، وأن الغالب على أهل بغداد مذهب الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-، «ومحله معروف بين الأئمة، وقدره معلوم في السنة»، إلى آخر ما قال. فليس في أي من الرسالتين ما يدل على إيثار الشافعية والحنفية، وليس فيهما اتهام أتباع أحمد بالابتداع، بل فيهما نقيض ذلك، وقد ذكر ابن الجوزي أن الحنابلة تداولوا هذا الكلام، وسُروا به، وتقوّوْا معه. (المترجم)]. (ز) بل كان الناس يدخلون عليه مدة مديدة، ثم قيل له: قد كثر استطراق الناس دار الخلافة، فاقتصر على من تُعيِّن دخوله، فقال: ما لي غرض في دخول أحد عليّ، فامتنع الناس [انظر: ابن رجب، ذيل، (١/ ٤٣)]. (المترجم).

جعفر وخصومه الثلاثة الأساسيين: ابن القشيري، وأبي إسحاق، وأبي سعد الصوفي، غير أن هذا الاجتماع لم يثمر شيئًا.

وقد هاجم الشريف بشدة نظام الملك، ولام فخر الدولة على عجزه عن حمل الناس على احترام [العقيدة] القادرية التي لم تعد تُقرأ بانتظام في دور العبادة. ثم كان أنْ حبس الخليفة أبا جعفر في القصر، ومنعه من تلقي الزيارات(ز)، ولم يأذن له بالخروج إلا ليموت عند أخته في (١٥ من صفر لسنة ٤٧٠هـ). وحصل من نظام [الملك] على رحيل ابن القشيري [عن بغداد]. وفي هذه السنة نفسها، ٤٧٠هـ وقعت حوادث أخرى، فقد خرج بعض طلاب النظامية بقيادة رجل يقال له الإسكندراني إلى سوق الثلاثاء، وتكلم هذا بتكفير الحنابلة، [فرُمي بآجرَّة، فدخل إلى سوق المدرسة واستغاث أهلها]، فخرجوا معه إلى سوق الثلاثاء، [ونهبوا بعض ما كان فيه]، ووقع الشر، ولم تهدأ الأوضاع -لبعض الوقت- إلا بعد أن طَرد جندُ الخلافة مثيرَ الفتنة[1]. وكان الخليفة قد منع -بعد فتنة ابن القشيري- الوعاظ من الجلوس (للوعظ) في الأماكن العامة، ثم لم يأذن لهم بذلك إلا جزئيًّا في سنة (٤٧٣)[2]، ولم يقع صدام إلى سنة (١٠٨٢/٤٧٥)، حين قدم البكري بغداد، مأذونًا له من قِبل نظام الملك لإلقاء الخطب في النظامية، مع تدريس المذهب الأشعري[3].

وتوالت الحوادث بعد ذلك، فشنَّ بعض فقهاء الحنابلة (ولم يبلغنا اسمه) هجومًا ضاريًا على النظامية: (تلك المدرسة التي أنشأها رجل من طوس، فأفسد الدين، وأضل المؤمنين)، وجعل يدعو الناس إلى هدمها، فأُخذ من بيت ابن عقيل، وجُلد وحُبس.

ووقع حادث آخر في (١٣ من شوال سنة ٦/٤٧٥ من مارس سنة ١٠٨٣)، فقد قامت مشاحنة بين أصحاب البكري والقاضي الحنبلي أبي الحسين (ت ٥٢٦هـ)، أحد أبناء القاضي أبي يعلى ابن الفراء (ت ٤٥٨هـ) فنهبوا داره، وأخذوا -فيما

(١) توجد قصة الإسكندراني في: ابن عقيل، (ص/ ٣٦٨، ٧١)، ك، (١٠/ ١٠٧). [أقول: لم يرد في المنتظم ذكر لطرد مثير الفتنة [الإسكندراني]، وإنما فيه أن أهل سوق الثلاثاء غَلبوا بالعوام، ودخلوا سوق المدرسة، فنهبوا القطعة التي تليهم منه، وقتلوا مريضًا وجدوه في غرفة، وأنفذ العميد أبو نصر الديلم والخراسانية إلى مؤيد الملك، فدفعوا العوام، وقتلوا بالنشاب بضعة عشر...، وكان نساؤهم على باب النوبي يلطمن. (المترجم)].

(٢) م، (٨/ ٣٢٦)، ب، (١٢/ ١٢١). [أقول: مراده بالإذن الجزئي السماح لهم بالوعظ دون الخوض في المسائل المذهبية التي تثير الفتن وتثير القلاقل. والتقييد بالأماكن العامة مدرج في هذا السياق من الكاتب، ولا ذكر له في المنتظم. (المترجم)].

(٣) هناك كلمة مختصرة بشأن البكري، في سنة (٤٧٥)، في: ابن عقيل، (٣٧١- ٥)، ك، (١٠/ ١٢٤، ٥). (وذكر ابن الأثير أن البكري كان مؤيدًا بالديوان).

أخذوا- كتاب (الصفات) لأبي يعلى -وهو في الثيوديسيا (théodicée) الحنبلية، في نظرية الصفات الإلهية- ووضعوه بين يدي البكري، الذي شنَّع على ما فيه على رؤوس الأشهاد، متهِمًا مؤلفه بالكفر[١].

وبعد أيام وقعت ثالث الحوادث وأخراها، فقد أراد البكري أن يخطب في جامع المنصور، فعارض ذلك نقيبُ الهاشميين، غير أن البكري تجاهل ذلك، وخطب في (٢٥ من شوال سنة ١٨/٤٧٥ من مارس سنة ١٠٨٣) في حماية الجند السلطاني، وعلى الرغم من أنه لم يعرض في خطبته لابن حنبل، فقد هاجم الحنابلة من جديد، ورماهم بالكفر، فرُمي بالآجُرِّ. ولما ضاق الخليفة بهذه الاضطرابات طرده، فجعل الهدوء يعود شيئًا فشيئًا، ومما أسهم في ذلك تلك الرحلة التي قام بها أبو إسحاق الشيرازي -في العام نفسه- إلى نظام الملك. وجُددت الخطبة من قِبل الخليفة لبنت السلطان ملكشاه[٢].

ولما ضاق الخليفة بهذه الاضطرابات طرده، فجعل الهدوء يعود شيئًا فشيئًا، ومما أسهم في ذلك تلك الرحلة التي قام بها أبو إسحاق الشيرازي -في العام نفسه- إلى نظام الملك. وجُددت الخطبة من قِبل الخليفة لبنت السلطان ملكشاه.

وقد شهدت بغداد قبل ذلك بسنوات بعض الاضطرابات الشيعية، ففي سنة (١٠٨١/٤٧٣) تم القضاء على تشكيل شبه عسكري من (فتيان) بزعامة رجل يُدعى عبد القادر الهاشمي [البزاز]، ورعاية شخص آخر مجهول يدعى ابن الرسولي [الخباز]. وقد كان هؤلاء الفتيان يجتمعون في مسجد بَرَاثا، وقد اتهموا بأنهم يدعون للفاطميين في

(١) راجع بشأن كتاب الصفات ملاحظات جورج مقدسي في: ابن عقيل، (ص/ ٣٤٢، ٤، و٣٧٣)، وبشأن أبي يعلى: ابن بطة، (حاشية/ ٢٣٢). [أقول: ههنا عدة ملاحظات: (١) أن السباب والخصام كانا -كما جاء في المنتظم- مع أصحاب القاضي أبي الحسين، لا معه. (٢) أن الذين هجموا على دار القاضي ونهبوها كانوا ممن أرسلهم عميد الدولة ابن جهير بعد أن أعلمه البكري بما وقع. (٣) أن الذي شنع على كتاب «الصفات» لأبي يعلى هو العميد، لا البكري، فقد جعله «بين يديه، يقرئه لكل من يدخل إليه، ويقول: أيجوز لمن يكتب هذا أن يُحمى أو يُؤوى في بلد؟». (٤) أن مصطلح الثيودوسيا (théodicée) -وهو من وضع لَيبنيتس (Leibnitz)- قد استخدمه لاؤوست هنا استخدامًا تُعْوِزُه الدقة؛ لأنه يشير إلى «جزء من الميتافيزيقا ينصب على دراسة العدالة الإلهية، ويفسر مشكلة الشر في العالم». [«المعجم الفلسفي»، مجمع اللغة العربية. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م)، (ص/ ١١٧)، وكتاب «الصفات» [وعنوانه الكامل «إبطال التأويلات لأخبار الصفات»] إنَّما هو -كما جاء في مقدمته ودل عليه عنوانه- في شرح الأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما يوهم ظاهره التشبيه، وفيه تعقبات على كتاب ابن فورك (الأشعري): «تأويل مشكل الحديث»، فلا تعلق له إذن بقضية «العدالة الإلهية»، ولا «بمشكلة الشر»، (المترجم)].

(٢) ب، (١٢/ ١٢٣).

مصر[١]. وتوالت الخطوب بعد ذلك، ووقعت شجارات دامية بين السنة والشيعة في سنة (١٠٨٥/٤٧٨) خلَّفت كثيرًا من الضحايا[٢]. وقد أعقب زيارةَ ملكشاه ونظام الملك بغدادَ في نهاية سنة (١٠٨٦/٤٧٩) فترةُ هدوء نسبي، غير أن بعض الحوادث وقعت في عام (١٠٨٨/٤٨١)[٣]، وأخرى بالغة الخطورة في العام التالي، حيث غصت شوارع بغداد -وفقًا لرواية ابن الجوزي وابن كثير- بأكثر من مائتي قتيل. وقد اتَّهم الشيعةَ خصومُهم بأنهم يسبون الصحابة، ويكرهون الإسلام في باطنهم[٤].

وفي سنة (١٠٩٠/٤٨٣) ادعى رجل بالبصرة [يقال له: تليا] أنه المهدي، ثم كتب -في العام التالي- إلى واسط يدعوهم، ويقول: أنا [الإمام المهدي] صاحب الزمان، آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأهدي الخلق إلى الحق[٥]. وفي هذا المناخ الشديد الاضطراب قدم الغزالي بغداد في جمادى الأولى سنة (٤٨٤/يونيو - يوليو سنة ١٠٩١م)، فكانت السنوات الأربع التي قضاها فيها -والتي تميزت بوقوع سلسلة من حوادث الموت العنيفة- فاتحة أزمة جديدة في السلطة[٦].

ويمكن استخلاص بعض الدروس من هذه الأزمات التي لم تزل تحدث بين سنتي (٩٩١/٣٨١، و١٠٩٢/٤٨٥م)، والتي ما انفكت تصبغ تاريخ العاصمة العراقية الكبيرة بصبغتها.

وفي هذا المناخ الشديد الاضطراب قدم الغزالي بغداد في جمادى الأولى سنة (٤٨٤/يونيو - يوليو سنة ١٠٩١م)، فكانت السنوات الأربع التي قضاها فيها -والتي تميزت بوقوع سلسلة من حوادث الموت العنيفة- فاتحة أزمة جديدة في السلطة.

فعدم دقة الحلول المقترحة لمشكلة العلاقة بين الخلافة والإمارة أو السلطنة -كما استطاع الماوردي، والغزالي من بعده، إدراكها- تبعث دائمًا على الشك العميق في كيفية تفويض السلطة وممارستها. فالحل المقترح ظل سياسيًّا أكثر من كونه فقهيًّا، وظل الخليفة -بعيدًا عن تقبله، بابتهاج قلبي، قدوم السلاجقة إلى بغداد، وبعيدًا عن كونه قد التمس منهم هذا القدوم- يجدُّ -كما كان يفعل أيام البويهيين- في مكافحة

(١) ب، (١٢/ ١٢١)، [؟].

(٢) ب، (١٢/ ١٢٧).

(٣) ب، (١٢/ ١٣٤).

(٤) ك، (١٠/ ١٧٠، ١٧٦)؛ ب، (١٢/ ١٣٥).

(٥) انظر في هذا المهدي: ب، (١٢/ ١٣٦، ٧).

(٦) راجع في هاتين الموتتين العنيفتين: ابن عقيل، (ص/ ١٣٨- ٤٠).

وصايـة سـادته الجـدد، مؤكـدًا الصلـة بـين بقائـه والدفـاع عـن السـنة، التـي كان يـرى أنـه حارسـها المميـز، مـن دون سـائر الممالـك الإقليميـة مهـما تكـن قويـة.

وكذلـك ظلـت صياغـة هـذه السُّـنة تثـير بعـض المشـكلات العويصـة. ولم تكـن السياسـة الدينيـة للخلافـة -كـما تحددهـا القادريـة- تماثـل تلـك التـي اتبعهـا المتـوكل بوضـوح شـديد ضـد الشـيعة، ولا أفلـح إنشـاء النظاميـة قـطّ وازدهـار المذهـب الأشـعري المتزايـد -كـما يـدل عليـه، عـلى نحـو كبـير، ذيـوعُ كتـب الغـزالي- في توهـين أمـر الاتجـاه المحافـظ (traditionalisme)، الـذي لا يُعـد الحنابلـة أنفسـهم إلا شـكلًا مـن أشـكاله، والـذي سـيجد مـلاذه -عقـب سـقوط الخلافـة- لـدى المماليـك، الذيـن سـيورثونه العثمانيـين.

ولم تنجـح سياسـات الخليفـة ولا انتصـار السـلاجقة في القضـاء عـلى الشـيعة الإماميـة، بـل ظلـت لهـم أهميـة كبـيرة، وبقـي عـلى الأيـام تراثهـم القـوي، مدعومًـا بمـا خلَّفـه عـصر البويهيـين مـن مصنفـات الكُلَيْنـي إلى أبي جعفـر الطـوسي. وليـس يسـعنا -حيـالَ عـودة الإماميـة، بـدءًا مـن عهـد النـاصر (٥٧٥-٦٢٢/١١٨٠-١٢٢٥)، ثـم اسـتعادتها حيويتهـا في عهـد الخلفـاء الثلاثـة الأُخـر قبـل سـقوط بغـداد في يـد المغـول- إلا نعـرض للـدور المبـاشر الـذي مارسـوه في إسـقاط الخلافـة السـنية، وهـو الحـدث الـذي طالمـا عـدوه مـن أمانيهـم. والحـق أن اسـتئنافهم النشـاط العلمـي والمذهبـي -عقـب سـقوط بغـداد- يقـوي في النفـس أنهـم لم يكونـوا بُـرَآء مـن الإسـهام في هـذا السـقوط[1].

(١) راجع ملاحظاتنا في الانشقاقات: (ص/ ٢٢٣، ٢٢٧).

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies